نجيب محفوظ وجائزة نوبل

فاز الروائي المصري الكبير نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب هذا العام (١٩٨٨م). ولا شك أن نجيب محفوظ أهل للتقدير العالمي لما أبدعه خلال رحلة أدبية أبتدأت بأول أعماله: "مصر القديمة" سنة ١٩٣٢م، ولم تزل مستمرة حتى الآن رغم بلوغ محفوظ عامه السابع والسبعين. ونجيب محفوظ روائي تشغله هموم بلده مصر، فأدبه محلي؛ ولكن فوزه بجائزة نوبل العالمية أثبتت أن المحلي، إذا كان بعمق محلية أدب محفوظ، لا يناقض العالمي. فرغم أن القضايا التي تتناولها قصص وروايات محفوظ قضايا مصرية، إلا أن معالجته لها، كانت معالجة إنسانية عميقة، ذات واسعية عالمية.

كان نجيب محفوظ دارسا للفلسفة وكاتبا فيها في مستهل حياته الثقافية. وظل أثر هذا الاهتمام المبكر واضحا في أعماله الأدبيه من بعد. والفلسفة موقف عام من المشكلات الإنسانية التي لا يحصرها مجتمع محلي من المجتمعات البشرية. ثم إن الأدب أيضا موقف عام من المشكلات الاجتماعية والإنسانية عامة؛ بهذا الموقف المزدوج ـ الفلسفي الأدبي ـ استطاع محفوظ أن يجعل من الأدب المحلي أدبا عالميا. وقد نزع نجيب محفوظ نحو التوفيق بين المطلق (الفلسفي) والقيم الاجتماعية. وتمثل هذا النزعة المحور الأساسي لأدبه في مرحلة متطورة أخذت تتضح معالمها مع رواية "أولاد حارتنا".

يرى نجيب محفوظ أن الفلسفة تدخل الأدب من سبل عدة: فـ"قد تدخل إلى العمل الأدبي أولا عن طريق مضمونه، بمعنى أن تكون للعمل الأدبي فكرة فلسفية، فيكون عملا فلسفيا قبل كل شيء، ومثال ذلك روايتا كامي: "الغريب" و"الطاعون"، ومسرحيات سارتر من الأدب الوجودي المعاصر، وفاوست من الأدب القديم؛ وقد تدخل إلى العمل الأدبي دون أن تكون فكرته فلسفية، أي بأن يتضمن العمل شخصيات فلسفية أو متفلسفة بالفعل، ويتضح ذلك من خلال الحوار والمواقف.. مثال ذلك الـ Point Countr Point لألدوس هكسلي؛ وقد تدخل عن طرق أخرى ــ ليس عن طريق الفكرة أو الشخصيات ــ وإنما عن طريق انعكاسها على النظام الذي يقوم عليه العمل الأدبي.. أي في الحبكة نفسها.. ويتضح لنا هذا عندما نتتبع الأحداث ومصائر الأشخاص مثلا، فيتكشف لنا أن الموقف يريد أن يقول إن الشخصية تتكون وتتلقى مصيرها نتيجة للبيئة، فهنا إذن، إيمان بالفلسفة المادية التي ترى أن الإنسان نتيجة للبيئة والمحيط..

وقد نجد في العمل الأدبي مجموعة من المصادفات المقصودة وهي غير تلك التي تجري عن سهو من المؤلف ــ مثل مصادفة توماس هاردي التي تعكس فلسفته في أن الإنسان لعبة في يد القدر، فالفلسفة هنا إنما تسللت إلى العمل الأدبي في نظامه؛ والمدخل الرابع للفلسفة إلى العمل الأدبي هو أن الأديب أو خالق العمل الفني يتأثر بالثقافة الفلسفية، وهنا تُؤثر الفلسفة في العمل تأثيرا غير مباشر ولكنها تعطيه ثراء محسوسا" .

كان نجيب محفوظ ومنذ بداية حياته، مهموما بمشكلتين في وقت واحد، هما المشكلة الاجتماعية والمشكلة الميتافيزيقية. كان في "المجلة

الجديدة" يناقش قضايا العقائد، وفي الوقت نفسه كان يعرض في قصصه للقضايا الاجتماعية.

ثم ظهر التحام أشد بين القضيتين، مع بروز أوضح للقضية الاجتماعية، كما يبدو في روايتيه: "القاهرة الجديدة"، و"خان الخليلي". ففي هاتين الروايتين، كان الهمّ الميتافيزيقي حاضرا. وعبّر الأخير عن نفسه تعبيرا أقوى في صرخة كمال في "الثلاثية".

على أن "أولاد حارتنا" هي الرواية التي لا مجال فيها إلى الحديث عن المشكلة الاجتماعية بدون ربطها بالمشكلة الميتافيزيقية. "ولا يخفى على قارىء هذه الرواية هذا الملمح الخاص، فإذا كان برناردشو في "العودة إلى ميتو شالج" قد جعل التجريد أساسا، موضوعا وشكلا، فإن استخدام محفوظ للحارة إنما يمثل محاولة موفقة لصهر المشكلتين في بوتقة واحدة" .

فقد اهتمت "أولاد حارتنا" بتاريخ البشرية، وتتبعته منذ القدم وحتى وصل بنا الراوي إلى الواقع الراهن، واقع القلق والضياع؛ فالجبلاوي ــ أحد أشخاص الرواية ــ يُقتل، وبقتله تنتهي الفكرة الدينية الصافية؛ ثم يُقتل عرفة، ممثل العلم. فالأول، في رؤية نجيب محفوظ، ينهي جانب الروح، والآخر يرمز إلى فكرة العلم الخيرة، التي تحولت بقتله إلى قوة تدمير تستغلها جهات قتلت عرفة لتقتل فيه رمز جوهر العلم.

ثم يرسم الراوي شخصية صابر، الإنسان الباحث عن المعاني التي تبحث عنها الحارة، وتتشوق إليها، هذا البحث الذي لا ينفصل عن القضية

الاجتماعية، وهو ما صوره الراوي من خلال أسرة محجوب وإحسان وحسنين وحميدة وعيسى الدباغ. ومن هذه الأسرة خرج البطل يبحث عن المطلق: " فهو إذ يبحث عن المشكلة الاجتماعية، يلتقي بالمشكلة الاجتماعية والميتافيزيقية" .

نجيب محفوظ في "أولاد حارتنا"، لم يفارق الواقع، ولكنه جنح إلى الفكر بالإضافة إلى الواقع. فاتخذت روايته هذه واقعا رمزيا. كان نجيب محفوظ قبل سن الخمسين، يهتم بالحياة، ليكتشف كل يوم جديدا.. أما بعد الخمسين، فقد اهتم بالأفكار التي تفسر له الحياة . "أولاد حارتنا" التي كُتبت بعد الخمسين، تعبير عن الفكر في مظهر واقعي؛ "فالتطلعات الميتافيزيقية لا تعني انفصالا مطلقا عن الواقع، ولكن هذا الأصل يتخذ في ذهن الكاتب شكلا أو تصورا جديدا على المستوى الفكري يطرحه من خلال هذه الجزئيات الواقعية" .

دراسة أدب نجيب محفوظ في مجمله، الذي بلغ ٤٩ عملا حتى الآن، تكشف عن موقف فلسفي عبّر عنه هذا الأديب في شكل أدبي. قال نجيب محفوظ عن الفلسفة إنها موقف "يلتزمه الإنسان من الناس والحياة والقيم. وبهذا المعنى لا يخلو إنسان من فلسفة". وأضاف: "وعلى أية حال أنا أرجح أن تمثل سلسلة كتبي في النهاية فلسفة ما، تكونت خطوة خطوة على أساس التجربة والثقافة. ولعلها لم تقل كلمتها النهائية، وربما لن نصل إلى هذه الكلمة على الإطلاق" .

فإذا كان هذا هو رأي نجيب محفوظ (عام ١٩٦٢م)، فإن رأي لجنة التحكيم لجائزة نوبل يسير في الاتجاه ذاته الذي سار فيه نجيب محفوظ، لكنه قطع شوطا أطول.

إن جائزة نوبل تمنح لمن يستحقها من المبدعين في شتى مجالات الإبداع الإنسانية. ولكنها لا تمنح لكل من يستحقها من هؤلاء المبدعين. ونجيب محفوظ أحد الذين يستحقونها على إبداعهم الأدبي من بين أدباء عرب كثيرين. وهنا يبرز التساؤل الذي يشكك في موضوعية قرارات لجنة تحكيم الجائزة، كما يبرز الشك في نزاهة أغراض هذه الجائزة.

وكان نجيب محفوظ يستحق الجائزة منذ زمن طويل. فلماذا تأخر منحها له حتى هذا العام؟ ولماذا منح نجيب محفوظ الجائزة دون غيره من المبدعين العرب؟ سؤالان جديران بالبحث عن جواب مقنع عنهما، مع الأخذ بالاعتبار التشككات التي تحيط بالجائزة، والتي نبه عليها المفكر العربي الكبير عباس محمود العقاد، منذ وقت طويل، في كتاب حمل عنوان: "جائزة نوبل". كثيرون يربطون بين مواقف نجيب محفوظ من اتفاق "كامب ديفيد" بين مصر، والدولة الصهيونية مغتصبة فلسطين، من جهة، وبين فوزه بجائزة نوبل، من جهة أخرى.

وكثيرون لم ينتبهوا إلى أن جائزة نوبل تمنح لعربي، للمرة الثانية خلال العقد الأخير. فقد منحت الجائزة أول مرة للرئيس المصري أنور السادات، مناصفة بينه وبين رئيس وزراء الدولة الصهيونية مناحيم بيغن، لتوقيعهما اتفاق "كامب ديفيد" الذي اعترفت فيه الزعامة المصرية السياسية

الرسمية بالدولة الصهيونية، وأنهت بهذا الاعتراف حالة الحرب بينها وبين الكيان الصهيوني العدواني.

فإذا صحت التقديرات التي تقول إن منح جائزة نوبل هذا العام، لنجيب محفوظ، هي جائزة له على موقفه السياسي المؤيد لاتفاق "كامب ديفيد"، فإن هذا لا ينفي أنه يستحق "أدبيا" هذه الجائزة؛ ثم جاء "استحقاقه السياسي" لها عامل تعزيز لاستحقاقه الأدبي، ففاز بها عن "جدارة تامة" بمعايير الجائزة المشكوك في نزاهتها، أو المتهمة في نزاهتها! وقد تكون التهنئة التي بادر وزير خارجية الدولة الصهيونية شمعون بيريز، التي أرسلها لنجيب محفوظ، فور إعلان فوزه بالجائزة، وإشادة سفير الدولة الصهيونية في القاهرة بنجيب محفوظ، قد يكون هذا محاولة ماكرة من العدو الصهيوني لكي يبرز من جديد، موقف نجيب محفوظ من اتفاقات "كامب ديفيد" لصالح الدولة الصهيونية.

ولكن، يبدو أن الروائي نجيب محفوظ، قد تنبه إلى ضرورة تفريغ فوزه بجائزة نوبل من مغزاها السياسي، فأعلن أن فوزه بجائزة نوبل، هو فوز للأدب العربي كله بهذه الجائزة.. فأكد نجيب بموقفه هذا، ومرة أخرى، على أن اهتمامه بالهموم المصرية المحلية، التي نال به جائزة الأدب الكبرى، إنما ينبع من رؤية فلسفية عامة، تدافع عن حقوق الإنسانية الأساسية، وعلى رأسها، حقوق شعب عربي، لكن عمق مصريته، يعادل أفق عروبته، وإنسانيته.. وعندما نتغور أعماق ما هو محلي، فإنما نكون قد حلقنا في أفق المطلق الإنساني.. تلك عبقرية الأديب نجيب محفوظ..